ثورتنا الأدبية الأولى ...

بقلم ميخائيل نعيمة

في ربيع سنتي الثانية في الجامعة(*) والاولى في كلية الحقوق ، حمل الي البريد العدد الاول من مجلة عربية تصدر في نيويورك باسم « الفنون » ، وكان التاريخ الذي عليه « نيسان ـ ١٩١٣ » . اما منشيء المجلة فرفيقي في الناصرة نسيب عريضة بشراكة رجل اخر لا اعرفه .

ما هذا الذي اعتراني عندما فتحت العدد ؟ ان عيني تسابق يدي في تقليب صفحاته وتلتهم ما فيها التهاما. وقلبي يصفق فرحا بين ضلوعي. فالى الشيطان ايتها « العقود » و « الصكوك » و « الجنح » و« الجنايات» وكل ما يتصل بالمحاكم والاحكام . انك سلسلة لا نهاية لها من المشكلات. والعدل عنك غريب . انك رغوة وفقاقيع صابون . وههنا فتح جديد ودنيا جديدة . ههنا حروف تنبض حياة . والعجيب انها حروف عربية. وعهدي بالحروف العربية ان عناكب الجمود والتقليد والنفاق والفاقة الفكرية والروحية قد نسجت فوقها اكفانا ، وان غبار خمسة قرون قد تكدس على تلك الاكفان . سبحان من يحييي العظام وهي رميم !

اول ما طالعني من بعد الفهرس في ذلك العدد الجميل المظهر والتنسيق رسم لجبران خليل جبران . وجه وسيم ، كئيب . شاربان يشبهان شاربي نيتشه . انف دقيق ، مستقيم . عينان واسعتان ، حالمتان . حاجبان كثيفان ، مقوسان . جبين عال ، وشعر كثيف ، ويدان لطيفتان ، حساستان . انه رسم حافل بالمعاني والمواهب .

وانتقل من الرسم الى المقال الافتتاحي الذي يليه فاذا به من قلم جبران وعنوانه « ايها الليل » :

« يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين !

يا ليل الاشباح والارواح الاخيلة !

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار ! » الخ

فيطربني منه قلم يعرف قيمة الحرف ، فلا يمتهنها . ويعرف جمال اللون ، والرنة ، والمعنى في الكلمة فلا يفحش بها . ويعرف ان للقلب اوتاره ، وللفكر اوتاره . وهذه ما لم تكن موقعة احسن التوقيع ، وبيد فنان مخلص لفنه ، كان كل ما يصدر عنها نشازا في نشاز .

ثم انتقل من مقال جبران الى قصيدة بعنوان « اماني » من قلم « اليف » . واجزم في الحال ان « اليف » ليس اكثر من اسم مستعار تستر وراءه رفيقي نسيب عريضه. فانا اعرف نفسه ، واعرف ان هذا اللون من الشعر قد اقتبسه نسيب من مطالعاته الروسية . وها هو العدد كله يشهد بذلك . فقد حشاه صاحب « الفنون » بترجمات من الشعراء والكتاب الروس ـ وعلى الاخص المحدثين منهم امثال « غوركي » و « اندرييف » و « سولوغوب » و « مرجكوفسكي » وغيرهم مع البعض من كتاب الغرب مثل « أوسكار وايلد » و « فيكتور هيغو » .

ومقال اخر يستوقفني في ذلك العدد . وعنوانه « بلبل الموت والحياة » وهو بقلم امين الريحاني :

« في القفص يغرد البلبل وفي الاودية تولول الرياح » ...

لا . لا. لست في حلم يا ميشا . فهذه النفحات التي هبت عليك من « فنون » رفيقك نسيب عريضه لم تنطلق من خيالك ومن رغبتك الملحاح في ان تجدد العربية شبابها . انها لحقيقة راهنة . وانها البشارة لك بالانبعاث الذي رحت تترجاه لبني قومك منذ ان اطلت على الادب الروسي والاداب العالمية وادركت قدسية الكلمة ، وقوة القلم اذا هو لم يدنس الكلمة بالكذب والرياء والتدجيل ، ولم يعبد الحرف دون الروح. بلى بلى . هذا اول الغيث يا ميشا ـ قطرة ثم يهمي . وهذه القطرة تتحداك يا ميشا . فهل لديك قطرات تضيفها اليها ؟ اذا كنت تريد ان يكون لك نصيب في الغيث الاتي فهذه الساعة هي ساعتك . وهذا اليوم هو يومك .

ورحت ادبج مقالا مستفيضا بعنوان « فجر الامل بعد ليل اليأس » فانفث فيه كل ما في صدري من نقمة وحقد على الادب المحنط ـ ادب التنميق والتقليد والتدجيل ـ ادب المجاملات والمناسبات والبهلوانيات ـ ادب القشور لا غذاء فيها لاي عقل وقلب ، ولا صلة رحم بينها وبين حياة نحياها. في كل يوم . كنت اكتب وبودي لو يتحول القلم في يدي بركانا ، ولو تخرج الكلمات من بين شقيه حمما تجرف وتحرق كل بال ودميم ومخاتل في آدابنا لعل ان تنهض لنا اقلام جديدة تقيم وزنا للصدق والجمال وباقي القيم الانسانية الرفيعة . واختتمت المقال بنقد لقصة جبران « الاجنحة المتكسرة » ، وكانت الصحف العربية في نيويورك قبل ذلك بشهور قد استقبلتها بالكثير من الاعجاب والتكبير . وبعثت بالمقال الى « الفنون » . فلم يلبث ان كتب الي نسيب يقول في جملة

(*) فصل من كتاب « سبعون » المرحلة الثانية ـ الذي يصدر قريبا عن دار صادر ـ دار بيروت .

ما يقول : (١)

« على انني اقول لك ان المجلة قد نفختني بانها كشفت لي آثار صديق غاب عن عيني منذ سنين. وقد تركته وعلى وجهه سيماء التفكر ، والاماني تشف من عينيه العميقتين حتى تكاد تتجسم بدون خيال . ووجدته الان فرأيته لا يزال يداري امانيه ، وكاني به يعد بناء عظيما للمستقبل ، او يهيىء قنبلات جهنمية لهدم بعض ركائز الماضي من الاوهام والخرافات والشرائع .

« ان ما كتبته يا صديقي في مقالتك عن الاجنحة المتكسرة لجميل وصحيح. قد اعجبتني طريقتك جدا ورأيت من نسقك ما جعلني اشدد الامل بأن اراك في مصاف كتابنا الناشئين لهذا العصر الجديد الذي هو بدء حياة ذهبية لادابنا الشرقية المنحطة . ولذلك ارجوك ان تواظب على الكتابة . واقترح عليك ان تطالع كل كتابنا من اليازجي الى الان وتكتب لنا فصلا عن كل منهم ليعلم القوم انهم لم يحصلوا الا على القشور من كل ما مروا عليه من ادب المدح والهجو وصف الكلام الفارغ الثقيل . وعسى ان تكون لنا مثل بيلينسكي عند الروسيين وسانت بيف عند الفرنسيين.»

ما ان تسلمت العدد الذي صدر فيه مقالي حتى اخذتني حماسة كالتي يخيل الي انها اخذت داود النبي عندما طلب اليه منازلة جليات الجبار. فالخصم عملاق واي عملاق . وهو شديد ، عنيد . ولو انه كان من لحم ودم لهان الامر الى حد . ولكنه تقاليد بعيدة الجذور ، توارثتها أجيال كثيرة على مدى قرون طويلة . انه نمط معيشة ، ونهج في التفكير والتعبير، انه سرطان في النفس وفي الدم . والمعركة معه ستكون حامية الوطيس. وها هي قد ابتدأت . والتراجع عنها يعني التراجع عن احلام عذاب. وعن رسالة حياة . فلنخضها واثقين من قوة سلاحنا . وسلاحنا هو الايمان بقدسية الكلمة ، وتكريسها لخدمة الحق والعدل والذوق الرفيع .

ومن غير ان اهمل دروسي رحت انهب من اوقات المطالعة والنزهة والنوم ساعات للكتابة . فاحبر المقالات في « الشعر والشعراء » وغير ذلك من المواضيع ، واكتب القصة ، واتبادل الرسائل المطولة مع نسيب بشأن المعركة وشان « الفنون » التي كانت حاملة اللواء في تلك المعركة ، والبوق الذي يذيع اخبارها . وانغمس في الكتابة الى حد ان انسى كل حاجة سواها . فلا يهمني ان اشغل قلبي بأي حب غير حب القلم . ولا ان الهو بشيء الا بالتفكير والتحبير . فالحلم الذي ما انفك يلاحقني من زمان قد بدأ يتحقق ويتجسد . وها هو نسيب يكتب الي :

« كتاباتك في الفنون وقعت على الجرح والالم . والقوم هنا معجبون بها ، وانا اشدهم اعجابا . فارجوك يا عزيزي ان تثابر على الكتابة اكراما للادب . اكراما للنهضة الادبية التي نريد اثارتها . سوف انتظر منك مقالة لكل عدد . وارجو ان لا تذخر وسعا في انتقاد عادات هذه الامة التاعسة » . وفي رسالة اخرى :

« اقول لك ان مقالاتك كلها التي صدرت في الفنون قد احدثت ضجيجا واستحسانا في العالم الادبي في المهجر . ولا شك انها ستحدث نفس الضجيج في العالم العتيق . لم ار اديبا الا وسألني عنك معجبا، متسائلا : لماذا لم يظهر هذا الكاتب قبل الان ؟ واين كان مختبئا ؟ وقد قال لي رهط من أدباء بوسطن : اننا نتهافت على عدد من الفنون تهافت الجياع على القصاع لنقرأ فيه قبل كل شيء مقالة نعيمه . واننا نعيد تلاوتها حتى تتملك من ذاكرتنا فنستطيع روايتها غيبا » .

الا ان تلك الانطلاقة السريعة ، العنيفة ، لم تلبث ان لاقت صدمة قوية . فقد وردتني من نسيب رسالة مؤرخة في ١٥ ايار ١٩١٤ . واليك اهم ما جاء فيها :

« كاني بك وقد حسبتني ميتا مفقودا بعد ان قطعت عنك رسائلي كل تلك البرهة الطويلة . اجل . اني كاليت ايها الحبيب . ولا ينقصني الا من يرثيني بالقصائد المعتاد عليها القوم. لقد خسرت معركتي وسقطت آمالي حولي قتلى . وشاءت الظروف بل شاءت الجهالة السورية ان تقف « الفنون » عند حدها . وذلك لان المشتركين « الكرام » لم « يتكرموا » بدفع بدلات الاشتراك في بحر السنة . بل لا يريدون ان يدفعوا قبل نهاية السنة ... والان وقد فرغ مالي وبخل علي المشتركون بما عليهم فليس لي الا ان اقف . وقد وقفت . ولا ادري اتتحرك رجلاي فيما بعد ام تيبسان الى الابد ... ان قيمة زهيدة (كبيرة جدا عندي) تبلغ ٢٠٠ ريال تنقذني .. وتنقذ « الفنون » .

« الفنون قد اذاقتني من العذاب فنونا . قد بذلت في سبيلها كل شيء . ولما بدأت اشعر اني فزت غلبتني الماديات . نعم . قد فزت ايها الصديق بجعل الفنون محبوبة في كل اقطار العالم العربي . وتهافت عليها المشتركون مؤخرا من سوريا ومصر والبرازيل والارجنتين حتى أمنت عليها مستقبلها ... اما انت ايها الحبيب فلا تقنط معي. بل دلل امانيك معي .. وكل ما ارجوه منك ان لاتنساني . بل شجعني بكتاباتك المحببة الى ان تحين اوقات الحياة ..

« قد كان المنفلوطي سألني ابداء رأي في نظراته . فحولتها اليك . فاذا ساعدتك اوقاتك فاكتب واشف غليلي من هؤلاء « الكتبة » .

« لاتقطع حبال امالك . فقد أتمكن قبل شهر تموز من اعادة الفنون ..»

فكتبت اليه اقول ان الصلة التي جددتها « الفنون » بيني وبينه بولادتها قد زادتها وثوقا بموتها . وان الامال التي بعثها فينا ستبقى تتجدد تجدد الفصول . فلا مجال للندب والقنوط . وبي ما يشبه اليقين بان المجلة ستعود الى الظهور .

بعد ثلا ثة شهور من وقوع « الفاجعة » وصلتني نسخة من كتاب « دمعة وابتسامة » لجبران . وكان نسيب هو الذي قد تولى طبعه في مطبعة « الفنون » . وقد ارفق النسخة برسالة جاء فيها : « ... لم أزل معلقا عودي على صفصاف بابل أنوح على اورشليم ... أرسلت اليك اليوم بالبريد كتاب دمعة وابتسامة .. فارجو منك ان تكرس قلمك لكتابة فصل انتقادي عنه . فقد كلفني المؤلف ان ارسله اليك واكتب عليه « برسم الانتقاد » . لا اعلم الى اين تستطيع ان ترسل مقالتك وبأي الجرائد تخصصها . فاني أضن بها ان تنشر مع ماينشرونه من الترهات والسفاسف . ولكن للضرورة احكام ... »

وقد « حكمت الضرورة » ان ينشر المقال في جريدة نصف اسبوعية كانت قد برزت حديثا الى الوجود في نيويورك باسم « السائح » وصاحبها عبد المسيح حداد ـ احد رفاقنا في الناصرة . وكان المقال بعنوان « أخماس وأسداس » أطريت فيه فن الكاتب وبراعته في تلوين الكلام ، وابتكار الاستعارات والتشابيه ، وبث الحياة حتى في الجماد . ونعيت عليه توغله في الرومنطيقية والسنتيمنتالية . وعلى الاخص في تصوير الاشخاص ، بحيث يبدون كما لو كانوا دمى ، لا بشرا من لحم ودم .

لقد جاء احتجاب « الفنون » صدمة للحركة الطالعة ـ ولكن الى حين.

ميخائيل نعيمه

(١) هذا المقال دمجت قسما منه فيما بعد بمقال « الحباحب » المدرج في « الغربال » .